يقول الحق سبحانه وتعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » . . ألم يكن يكفى أن يقول الحق فويل للذين يكتبون الكتاب ويكون المعنى مفهوما . . يكتبون الكتاب بماذا ؟ بأيديهم . . نقول لا . . لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل . . رئيس الدولة مثلا يتصل بأحد وزرائه ويقول له ألم أكتب إليك كتابا بكذا فلماذا لم تنفذه ؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ولكنهم كتبوه بأمره ، ورؤساء الدول نادرا ما يكتبون كتبا بأيديهم .

إن الله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم . . فهم لا يكتفون مثلا بأن يقولوا لغيرهم إكتبوا . . ولكن لإهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماما . . فليست المسألة نزوة عابرة . . ولكنها مع سبق الإصرار والترصد . . وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمنا قليلا ، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية . . يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان .

ولقد كان أهل الكتاب فى الماضى إذا اختلفوا فى شىء . . ذهبوا إلى الكهان والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم . . لماذا ؟ لأن الناس حين يختلفون يريدون أن يستتروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا مخطئين . . يعنى لا أنهزم امامه ولا ينهزم أمامى . . وإنما يقولون ارتضينا حكم فلان . . فإذا كنا سنلجأ إلى تشريع السماء ليحكم بيننا . . لا يكون هناك غالب ومغلوب أو منهزم ومنتصر . . ذلك حين أخضع أنا وأنت لحكم الله يكون كل منا راضيا بنتيجة هذا الحكم .

ولكن رجال الدين اليهودى والمسيحى أخذوا يصدرون فتاوى متناقضة . . كل منهم حسب مصلحته وهواه . . ولذلك تضاربت الأحكام فى القضايا المتشابهة . . لأنه لم يعد الحكم بالعدل . . بل أصبح الحكم خاضعا لأهواء ومصالح وقضايا البشر . . وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . . إنما يريدون أن يخلعوا على المكتوب قداسة تجعل الإنسان يأخذه بلا مناقشة . . وبذلك يكونون هم المشرعين باسم الله ، ويكتبون ما يريدون ويسجلونه كتابة ، وحين أحس أهل الكتاب بتضارب حكم الدين بما أضافه الرهبان والأحبار ، بدأوا يطلبون تحرير الحكم من سلطة الكنيسة .

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ؟! . . الحق سبحانه وتعالى يقول : « ليشتروا به ثمنا قليلا » . . وقد قلنا إن الإنسان لا يشترى الثمن . . ولكنه يدفع الثمن ويشترى السلعة . . ولكنك هنا تدفع لتأخذ ثمنا . . تدفع من منهج الله وحكم الله فتغيره وتبدله لتأخذ ثمنا موقوتا . . والله سبحانه وتعالى يعطيك فى الآخرة الكثير ولكنك تبيعه بالقليل . . وكل ثمن مهما بلغ تأخذه مقابل منهج الله يعتبر ثمنا قليلا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فويل لهم مما كتبت أيديهم » . . الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » . . ثم جاء قوله تعالى : « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » . . فساعة الكتابة لها ويل وعذاب . . وساعة بيع الصفقة لها ويل وعذاب . . والذى يكسبونه هو ويل وعذاب .

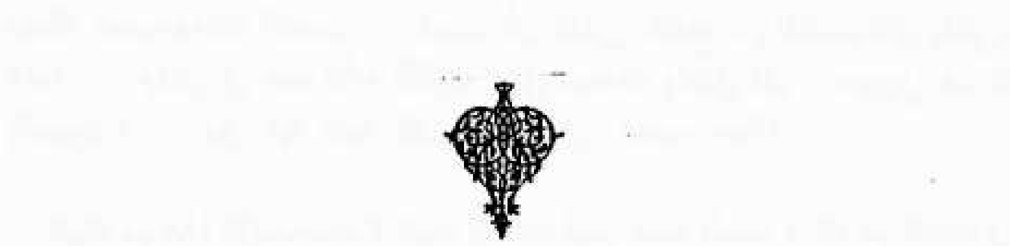
لقد انتشرت هذه المسألة فى كتابة صكوك الغفران التى كانت تباع فى الكنائس لمن يدفع أكثر . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وويل لهم مما يكسبون » . . وكلمة كسب تدل على عمل من أعمال جوارحك يجلب لك خيرا أو نفعا . . وهناك كسب وهناك اكتسب . . كسب تأتى بالشىء النافع ، واكتسب تأتى بالشىء الضار . . ولكن فى هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : « وويل لهم مما يكسبون » . . وفى آية ثانية قال : « بلى من كسب سيئة» .

فلماذا تم هذا الإستخدام ؟ نقول إن هذا ليس كسبا طبيعيا ، إنما هو افتعال فى الكسب . . أى اكتساب . . ولابد أن نفهم إنه بالنسبة لجوارح الإنسان . . فإن هناك القول والفعل والعمل . . بعض الناس يعتقد إن هناك القول والعمل . . نقول لا . . هناك قول هو عمل اللسان . . وفعل هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان . . وعمل وهو أن يوافق القول الفعل . . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

إذن هناك قول وفعل وعمل . . والإنسان إذا استخدم جوارحه استخداما سلبيا يفعل ما هو صالح له . . فإذا انتقل إلى ما هو غير صالح إلى ما يغضب الله فإن جوارحه لاتفعل ولكنها تفتعل . . تتصادم ملكاتها بعضها مع بعض والإنسان وهو يفتح الخزانة ليأخذ من ماله يكون مطمئنا لا يخاف شيئا . . والإنسان حين يفتح خزانة غيره يكون مضطربا وتصرفاته كلها افتعال . . والإنسان مع زوجته منسجم فى هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون فى وضع مخالف . . إنها حالة افتعال . . وكل من يكسب شيئا حراما إفتعله . . ولذلك يقال عنه اكتسب . . إلا إذا تمرس وأصبح الحرام لا يهزه ، أو ممن نقول عنهم معتادو الإجرام . . فى هذه الحالة يفعل الشىء بلا افتعال لأنه اعتاد عليه . . هؤلاء الذين وصلوا إلى الحد الذى يكتبون فيه بأيديهم ويقولون من عند الله . . أصبح الإثم لا يهزهم ، ولذلك توعدهم الله بالعذاب مرتين فى آية واحدة .



﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

هنا يكشف الله سبحانه وتعالى فكر هؤلاء الناس .. لقد زين لهم الشيطان الباطل فجعلهم يعتقدون أنهم كسبوا فعلا وأنهم أخذوا المال والجاه الدنيوى وفازوا به .. لأنهم لن يعذبوا فى الآخرة إلا عذابا خفيفا قصيرا .. ولذلك يفضح الله تبارك وتعالى مايقولونه بعضهم مع بعض .. ماذا قالوا ؟ : « قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة »

المس يعنى اللمس الخفيف أو اقتراب شىء من شىء .. ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساسا خفيفا لا يكاد يذكر .. فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أنا مِلَك على يده يقال مسست .. ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو نعومة جلده .. ولكن اللمس يعطيك إحساسا بما تلمس : « قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » وهكذا أخذوا أقل الأقل فى العذاب .. ثم أقل الأقل فى الزمن فقالوا أياما معدودة .. الشىء إذا قيل عن معدود فهو قليل .. أما الشىء الذى لا يحصى فهو الكثير .. ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(من الآية ١٨ سورة النحل)

فمجرد الإقبال على العد معناه أن الشىء يمكن إحصاؤه .. فإن لم يكن ممكنا لا يُقبل أحد على عده ، ولا نرى من حاول عدَّ حبات الرمال أو ذرات الماء فى البحار .. نِعَمُ الله سبحانه وتعالى ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى ، ولذلك

لا يُقبل أحد على إحصائها . . وإذا سمعت كلمة « أياما معدودة » فأعلم انها أيام قليلة . . ولذلك نرى فى سورة يوسف قول الحق جل جلاله :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة يوسف)

قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . . دليل على غبائهم لأن مدة المس لا تكون إلا لحظة . . ولكنها أمانى وضعها الشيطان فى عقولهم ليأتى الرد من الله فى قوله سبحانه : « قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده » أى إذا كان ذلك وعدًا من الله ، فالله لا يخلف وعده . والله يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم . . بل هو جل جلاله الذى يحكم . . فإن كان قد أعطاكم عهدا فالله لا يخلف وعده .

وقوله تعالى : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » . . هنا أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فبدلا من أن يقول لهم أتفترون على الله أو أتكذبون على الله . . أو أتختلقون على الله ما لم يقله . . قال : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » إن الذى يختلق الكلام يعلم أنه مختلق . . إنه أول من يعلم كذب ما يقول ، وقد يكون له حجة ويقنع من أمامه فيصدقه ، ولكنه يظل يعلم إن ما قاله مختلق رغم أنهم صدقوه . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها)[1] .

إذن مختلق الشيء يعرف إن هذا الشيء مختلق . وهؤلاء اليهود هم أول من يعلم إن قولهم . . « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » قول مختلق . . ولكن لمن يقولون على الله ما هو إفتراء وكذب ؟ يقولون للأميين الذين لا يعرفون الكتاب .

(١) (رواه مالك وأحمد والبخارى ومسلم)

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٨١) ﴾

أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح كذبهم .. فجاء القرآن قائلا : « بلى » وهى حرف جواب مثل نعم تماما .. ولكن « بلى » حرف جواب فى النفى .. يعنى ينفى الذى قبله .. هم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ورسول الله سألهم هل اتخذوا عند الله عهدا أو يقولون على الله ما لا يعلمون ، فجاء القرآن ليقول : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. بداية الجواب ببلى تنفى ما قالوا .. لأن بلى تأتى بعد النفى .. ونعم تأتى بعد الاجابة .. فإذا قال إنسان ليس لك عندى شىء وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عندى شىء .. أما إذا قلت بلى ، فمعنى ذلك أن لك عندى شيئا أو أشياء .. ولذلك بعد قولهم « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » .. لو جاء بعدها نعم ، لكان قولهم صحيحا ، ولكن بلى نفت .. وجاء الكلام بعدها مؤكدا النفى :

« من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » هم قالوا لن تمسنا النار .. قال لن تمسكم فقط بل أنتم فيها خالدون .. وقوله تعالى : « أصحاب النار » .. الصحبة تقتضى نوعا من الملازمة فيها تجاذب المتصاحبين .. ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذب بينهم وبين النار ..

هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : « بلى من كسب سيئة » .. وكان السياق يقتضى أن يقال اكتسب .. ولكن لأنهم ظنوا أنهم كسبوا .. كما بينا فى الآية السابقة .. وقوله تعالى : « وأحاطت به خطيئته » .. احاطة بحيث

لا يوجد منفذ للإفلات من الخطيئة لأنها محيطة به . وأنسب تفسير لقوله تعالى : « كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » . . أن المراد الشرك . . لأن الشرك هو الذى يحيط بالإنسان ولا مغفرة فيه . . والله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ولذلك فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط . . ولكنهم كانوا كافرين مشركين . والدليل قوله تعالى : « هم فيها خالدون » . . وأصحاب الصغائر أو الكبائر الذين يتوبون منها لا يخلدون فى النار . . ولكن المشرك بالله والكافر به هم الخالدون فى النار . . وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كافر . . لأن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

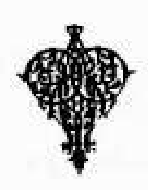
(سورة آل عمران)

ولذلك قلت هناك فرق بين . . الإنسان الذى يرتكب معصية لأنه لا يقدر على نفسه فيندم ويتوب . . وبين إنسان يفرح بالمعصية . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

وهناك من يندم على المعصية وهذا له توبة . . وهناك من يفرح بالمعصية وهذا يزداد معصية .



﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. العذاب والنار، يأتى بالمقابل وهو النعيم والجنة .. ذلك أن المقابلة ترينا الفرق .. وتعطى للمؤمن إحساسا بالسعادة .. لأنه زحزح عن عذاب الآخرة ، وليس هذا فقط .. بل دخل الجنة ليقيم خالدا فى النعيم .. ولذلك يقول سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إذن الفوز فى الآخرة ليس على درجة واحدة ولكن على درجتين .. أولى درجات الفوز أن يزحزح الإنسان عن النار ولو إلى الأعراف وهذا فوز عظيم .. يكفى انك تمر على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله .. يكفى ذلك ليكون فوزا عظيما .. لأن الكافر فى هذه اللحظة يتمنى لو كان ترابا حتى لا يدخل النار .. فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يحس بما نجا منه .. فإذا تجاوز النار ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيما خالدا كان هذا فوزًا آخر .. ولذلك حرص الله تبارك وتعالى أن يعطينا المرحلتين . فلم يقل : من زحزح عن النار فاز .. ولم يقل من أدخل الجنة فاز .. بل قال « فمن زُحْزِحَ عن النارِ وأُدخِلَ الجَنَّةَ فقد فاز » .. وجاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات العذاب لتعطينا المقارنة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أخذ الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل ثمانية أشياء : الميثاق .. وهو العهد الموثق المربوط ربطا دقيقا وهو عهد الفطرة أو عهد الذر .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهناك عهد آخر أخذه سبحانه وتعالى على رسله جميعا .. أن يبشروا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ويطلبوا من أتباعهم أن يؤمنوا به عند بعثه .. أو ألا يكتموا ما فى كتبهم والا يغيروه .. والميثاق هو كل شىء فيه تكليف من الله .. ذلك أنك تدخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى بأن تفعل ما يأمر به وتترك ما نهى عنه .. هذا هو الميثاق .. كلمة الميثاق وردت فى القرآن الكريم بوصف غليظ .. فى علاقة الرجل بالمرأة .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النساء)

نقول نعم لأن هذا الميثاق سيحل للمرأة أشياء لا تكون إلا به .. أشياء لا تحل لأبيها أو لأخيها أو أى إنسان عدا زوجها .. والرجل إذا دخل على ابنته وكانت ساقها مكشوفة تسارع بتغطيته .. فإذا دخل عليها زوجها فلا شىء عليها .. إذن هو ميثاق غليظ لأنه دخل مناطق العورة وأباح العورة للزوج والزوجة .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن كلا منهما يغطى ويخفى ويستر عورة الآخر .. والأب لا يفرح من انتقال ولاية ابنته إلى غيره .. إلا انتقال هذه الولاية لزوجها .. ويشعر بالقلق عندما تكبر الفتاة ولا تتزوج .

الحق يقول : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله » هذا الميثاق شمل ثلاثة شروط : « لا تعبدون إلا الله » .. أى تعبدون الله وحده .. وتؤمنون بالتوراة وبموسى نبيا .. لماذا ؟ لأن عبادة الله وحده هى قمة الإيمان .. ولكن لا تحدد أنت منهج عبادته سبحانه .. بل الذى يحدد منهج العبادة هو المعبود وليس العابد .. لابد أن تتخذ المنهج المنزل من الله وهو التوراة وتؤمن به .. ثم بعد ذلك تؤمن بموسى نبيا .. لأنه هو الذى نزلت عليه التوراة .. وهو الذى سيبين لك طريق العبادة الصحيحة . وبدون هذه الشروط الثلاثة لا تستقيم عبادة بنى إسرائيل ..

وقوله تعالى : « وبالوالدين إحسانا » لأنهما السبب المباشر فى وجودك .. ربياك وأنت صغير ، ورعياك ، وقوله تعالى : « إحسانا » معناه زيادة على المفروض . لأنك قد تؤدى الشىء بالقدر المفروض منك .. فالذى يؤدى الصلاة مثلا بقدر الغرض يكون قد أدى .. أما الذى يصلى النوافل ويقوم الليل يكون قد دخل فى مجال الإحسان .. أى عطاؤه أكثر من المفروض .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ

ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

(سورة الذاريات)

وهكذا نرى أن الإحسان زيادة على المفروض فى الصلاة والتسبيح والصدقة . والله تبارك وتعالى يريد منك أن تعطى لوالديك أكثر من المفروض أو من الواجب عليك . .

وقوله تعالى : « وذوى القربى » . . يحدد الله لنا فيها المرتبة الثانية بالنسبة للإحسان . . فالله جل جلاله أوصانا أن نحسن لوالدينا ونرعى أقاربنا . . ولو أن كل واحد منا قام بهذه العملية ما وجد محتاج أو فقير أو مسكين فى المجتمع . . والله يريد مجتمعا لا فقر فيه ولا حقد . . وهذا لا يتأتى إلا بالتراحم والإحسان للوالدين والأقارب . . فيكون لكل محتاج فى المجتمع من يكفله . .

يقول الله سبحانه : « واليتامى » . . واليتيم هو من فقد أباه وهو طفل لم يبلغ مبلغ الرجال . . هذا فى الإنسان . . أما فى الحيوان فإن اليتيم من فقد أمه . . لأن الأمومة فى الحيوان هى الملازمة للطفل ، ولأن الأب غير معروف فى الحيوان ولكن الأم معروفة . . اليتيم الذى فقد أباه فقد من يعوله ومن يسعى من أجله ومن يدافع عنه . . والله سبحانه وتعالى جعل الأم هى التى تربى وترعى . . والأب يكافح من أجل توفير إحتياجات الأسرة . . ولكن الحال إنقلب الآن ولذلك يقول شوقى رحمه الله :

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنِ انْتَهَى أَبَوَاهُ مِنْ
هَمِّ الْحَيَاةِ وَخَلَّفَاهُ ذَلِيلاَ
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِى تَلْقَى لَهُ
أُمّاً تَخَلَّتْ أَوْ أَباً مَشْغُولاَ

إن اليتيم يكون منكسرا لأنه فقد والده فأصبح لا نصير له . . فإذا رأينا فى المجتمع الإسلامى أن كل يتيم يرعاه رعاية الأب كل رجال المجتمع . . فذلك

يجعل الأب لا يخشى أن يترك إبنه بعد وفاته . . إذن فرعاية المجتمع لليتيم تضمن أولا حماية حقه ، لأنه إذا كان يتيما وله مال فإن الناس كلهم يطمعون فى ماله ، لأنه لا يقدر أن يحميه . . هذه واحده . . والثانية أن هذا التكافل يُذهِب الحقد من المجتمع ويجعل كل إنسان مطمئنا على أولاده . .

وقوله سبحانه وتعالى : « والمساكين » . . فى الماضى كنا نقول إن المساكين هم الذين لا يملكون شيئا على الإطلاق ليقيموا به حياتهم . . إلى أن نزلت الآية الكريمة فى سورة الكهف :

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فعرفنا أن المسكين قد يملك . . ولكنه لا يملك ما يكفيه . . وهذا نوع من التكافل الإجتماعى لابد أن يكون موجودا فى المجتمع . . حتى يتكافل المجتمع كله . . فأنت إن كنت فقيرا أو مسكينا ويأتيك من رجل غنى ما يعينك على حياتك . . فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يصيبك . . ولكن إذا كان هذا الغنى لا يعطيك شيئا . . هو يزداد غنى وأنت تزداد فقرا . . تكون النتيجة أن حقده يزداد عليك . .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : « وقولوا للناس حُسْنا » . . كلمة حسنا بضم الحاء ترد بمعنى حسن بفتح الحاء . . والحسن هو ما حسنه الشرع . . ذلك أن العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ماحسُنه الشرع أو ماحسنه العقل ؟ نقول : ما حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع . . لأن العقل قد يختلف فى الشىء الواحد . . هذا يعتبره حسنا وهذا يعتبره قبيحا . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٢٥سورة النحل)

هذا هو معنى قوله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » . . ثم جاء قوله جل

جلاله : « وأقيموا الصلاة » وقد تكلمنا عن معنى إقامة الصلاة وما يجعلها مقبولة عند الله . وهناك فرق بين أن تقول صلوا . . وبين أن تقول أقيموا الصلاة . . أقيموا الصلاة معناها صلِّ ولكن صلاة على مستواها الذى يطلب منك . . وإقامة الصلاة كما قلنا هى الركن الذى لا يسقط أبدا عن الإنسان . .

ويقول الحق : « وآتوا الزكاة » . . بالنسبة للزكاة عندما يقول الله سبحانه : « وذوى القربى واليتامى والمساكين » . . نقول أن الأقارب واليتامى والمساكين لهم حق فى الزكاة ماداموا فقراء . . لنحس جميعا أننا نعيش فى بيئة إيمانية متكاملة متكافلة . . يحاول كل منا أن يعاون الآخر . . فالزكاة فى الأساس تعطى للفقير ولو لم يكن يتيما أو قريبا . . فإن لكل فقير حقوقا ورعاية . . فإذا كان هناك فقراء أقارب أو يتامى يصبح لهم حقان . . حق القريب وحق الفقير . .

وإن كان يتيما فله حق اليتيم وحق الفقير . . بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى عناصر الميثاق الثمانية . . قال : « ثم توليتم » . . تولى يعنى أعرض أو لم يُطعْ أو لم يستمع . . يقول الحق سبحانه : « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » . . هذا هو واقع تاريخ بنى إسرائيل . . لأن بعضهم تولى ولم يطع الميثاق وبعضهم أطاع . .

إن القرآن لم يشن حملة على اليهود ، وإنما شن حملة على المخالفين منهم . ولذلك احترم الواقع وقال : « إلا قليلا » . . وهذا يقال عنه بالنسبة للبشر قانون صيانة الاحتمال . .

إن الحق جل جلاله يتكلم بإنصاف الخالق للمخلوق . . لذلك لم يقل « ثم توليتم » بل قال إلا قليلا . « توليتم » يعنى أعرضتم ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » نريد أن نأخذ الدقة الأدائية . . إذا أردنا أن نفسر تولىّ . . فمعناها أعرض أو رفض الأمر . . ولكن الدقة لو نظرنا للقرآن لوجدنا أنه حين يلتقى المؤمن بالكافر فى معركة . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

إذن فالتولى هو الإعراض . . والحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة بين لنا أن الإعراض يتم بنوايا مختلفة . . المقاتل يوم الزحف يعرض أو يتولى ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية أن يذهب ليقاتل فى مكان آخر أو يعاون إخوانه الذين تكاثر عليهم الأعداء . . هذا إعراض ولكن ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية القتال بشكل أنسب للنصر . .

نفرض أن إنسانا مدين لك رأيته وهو قادم فى الطريق فتوليت عنه . . أنت لم تعرض عنه كرها . . ولكن رحمة لأنك لا تريد المساس بكرامته . . إذن هناك تولٍّ أو إعراض ليس بنية الإعراض . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هؤلاء اليهود تولوا بنية الإعراض ، ولم يتولوا بأى نية أخرى . . أى أنهم أعرضوا وهم متعمدون أن يعرضوا . . وليس لهدف آخر .

